الابحاث الفلسفية والبسيكولوجية

الموسيقى والفلسفة

مقدمة

نشأت وشبت معي عاطفة تجذبني نحو الكمال والجمال وما فتئت هذه النفحه العلوية والجذوة الربانية تتوقد في فؤادي ويثور ثائرها كلما تجلى لها الكمال والجمال بأبهى مظاهرهما ومعانيهما في أي كائن كان من صنع الخالق أو من مبتدعات فنون الانسان

أنارت هذه الشعلة بصيرتي وباصرتي فاصبحت العين تنفذ في اعماق ما يغتنها فترى فيها جمالا ربما كان خفياً لا يدرك معناه كل من رآها كما انها لا تعزب عنها عيوب استترت تحت جمال كاذب يغر كثيراً من الجهلاء السذج

شغفت بالموسيقى وحلت من فؤادي المحل الارفع فأصبحت لي في الداء شفاء وفي الحزن سلوانا وفي البؤس سعادة ترتاح اليها نفسي وينعم بها روحي

رويدك أيها القاريء فلا تتهمني بالشطط والمغالاة فانك لا تلبث أن تسلم بما قلت حينما ارفع لك الاستار واكشف الحجب عن محاسن تفتن القلوب وجمال يسلب النهي وقدرة عظيمة واسرار مدهشة حجبها جهل فظيع ذهبت غشاوته بالابصار وانتقلت أعراضه الى الآذان فأصمتها والى القلوب فأعمتها واصبح الفن عندنا كالحسناء فتكت بها الداء الدفين والفقر المدقع فظلت هائمة على وجهها متسربلة بأطمار بالية سترت مابقي فيها من آثار الجمال فنفر منها مريدوها وهجرها محبوها

اختلجت منذ سنين في صدري فكرة اظهار آيات جمال الموسيقى الخفية وأسرارها العلوية فوجدتني عيا لا أستطيع أن أجهر بوجدان أشعر به غير كاف للتعبير . فهو وان كان جله صادقا فانه يعوزه الدليل القاطع والحجج الدامغة

أردت أن أستعين بالمؤلفات الافرنجية فنقبت طويلا فلم أعثر على ضالتي المنشودة لان هـذا البحث لم يطرق الا حديثا فصبرت ردحا من الزمن الى أن وفقني الله للعثور على بعض المؤلفات الجليلة التي تبحث في الموسيقى والفلسفة وكلها لافاضل المعاصرين فعمدت الى دراستها جميعها لانماء هذا الشعور وتهذيبه وسأوافي القراء بصفوة ما احرزته بعد تبويبها حسبما يلائم مشربنا متوخيا أسلوبا جليا واضحا تفهمه العامه قبل الخاصة لعلي اكون بذلك قد أديت بعضا مما يفرضه علي الواجب الاجتماعي

ليس المقام مقام بحث في الفلسفة وتعريفها وتقسيمها ولا مقاما يتناول الموسيقى من الوجهة الفنية والعملية بل مداره اظهاره فضل الموسيقى واسرارها وعلاقاتها بالفلسفة والشعر وتأثيرها في الاخلاق والعادات ونفوذها وقوتها في السحر وتأثيرها في الحيوان

الموسيقى قوة عظيمة فتانة ساحرة بل هي فن يعبر به الانسان عن وجدانه وشعوره بأنغام أفصح من النطق وأبلغ من البيان وأقرب منهما تناولا للاذهان . الفكرة الموسيقية مظهر لالهام عام عميق غامض ولكنه مفهوم لدي العالم الانساني الموسيقى هي لغة النفس التي تنعم بصفائها وسعادتها ومقرها أرقى من الحياة الحقيقية وقد قال (لوتير) : « انني أضع بعد الالهيات مباشرة الموسيقى وامنحها الشرف الثاني » . وزاد عليه (بيتهوفن) نابغة الموسقيين اذ قال : « الموسيقى وحي أعظم وأرفع من جميع الاخلاق والفلسفة ان هي إلا رحيق ينعشنا ويؤهلنا لجديد الابتداع بل هي الحياة الخيالية منضمة الى الحياة المادية وهي الموصل الوحيد الى العالم الاعلى عالم المعرفة الذي يشعر به الانسان ولا يستطيع ولوجه وبها ندرك العلم الكامل الالهي »

الموسيقى هي التي تترجم وتنشي. الحالات النفسانية العميقة بل هي ألطف ما انبعث من العقول . الموسيقى قوة رقيقة لطيفة للحياة الادبية . ان هي الا شعور وفكر في آن واحد. الموسيقى هي لغة الحب الافئدة بل حلية الخيال وزينة التصور

الموسيقى لغة غزيرة المعاني خفية الاسرار توقظ التقوى وتخاطب الشعور مباشرة بغير واسطة . وقال (فاجنر) الموسيقى الطائر الصيت : « القلب هو الصوت وما الموسيقى الا لغته الفنية بل الهوى الذي يفيض ويسيل من الافئدة

وقد اظهر الموسيقى الفرنسي الشهير (بيرليوز) قدرة الموسيقى على التعبير عن الاحوال النفسانية ومعظم الجزء الخاص بالانتقاد في كتابه يدور على صدق التعبير في الموسيقى فتراه بمهارته المعروفة قد ازدرى وسخر من توقيع الآلات الموسيقية في الازمان الغابرة حيث وجد جانباً منها تكملة للعدد تسد فراغا لا معنى له أو تضاعف صوتاً تحدثه آلة أخرى فقال « ان هذه الموسيقى لا تصلح الا لترقيص القردة في الاسواق واسناد الحواة والبهالين وبالعي السيوف والثعابين في أقذر الطرق »

الموسيقى هي الفن المتداول الذي يستق مادته من الحياة الاجتماعية كالنبات يمتص غذاءه من المكان الذي تخترقه جذوره لا التصوير ولا الحفر متداولان كما ان فن زخرفة البناء في غاية التعقيد ومفعم بالمعلومات الفنية والاثرية وخاضع للاشتغال بالزخرفة أو ضروريات أعمال خاصة ليصبح عملا وقتياً جامعاً لعدة أشياء فهذا الامتياز اذن خاص بالموسيقى وأخيها الشعر

الموسيقى لها معنيان مختلفان متحدان فى شكل واحد كالروح والجسد أحدهما فى غاية من السهولة والوضوح والثاني يفر من الباحث فيه فهو في الوقت نفسه تقليد لحياة الحب أو الاشياء الظاهرة ولغة ذات فكرة خاصة بها تهيمن على جميع الاشياء فهي تشمل في هذا التعبير المزدوج العبارة الشعرية التى تعززها بالحقائق الوافرة وتكمل الفكر البليغة بنقلها الى مستوى أرقى خيالا . وهذا مما يدل على وجود التفاوت التام بين الموسيقى والشعر ... ليس الفرق بين الشاعر والموسيقار قاصراً على انهما لايتكلمان بلغة واحدة ولا يخضعان لقانون واحد بل لانهما لايفكران بمقدرة واحدة . وهذا التضاد هو الذي يدفع الواحد نحو الآخر ليتمما بعضهما ببعض . وحينما يجتمعان يعضدان اللغة الاصلية ويمنحان أصولها منتهى القدرة فيتغلبان على عواطفنا السامية ويتمكنان من أن يبثا فينا أقوى وأشرف عواطف التكافل الاجتماعي

لاتوجد أمة متمدينة أو وحشية إلا والموسيقى منتشرة بينها . واذا تصفحنا

التاريخ وجدناها فى العصور الخالية . وأقدم دليل هو صورة محفورة على الاحجار تمثل شخصاً يوقع على آلة موسيقية تسمى (هارب) وجدت فى بلاد الكلدانيين وعثر عليها المسيو (سرزيك) في قصر (تلو) على الشاطىء الايسر من قناة تربط الدجلة بالفرات . وقد قدر تاريخها أفاضل العلماء مثل (بواتييه) بثلاثين قرناً قبل الميلاد . ولا مشاحة في أن الموسيقى أقدم من الشعر وهي التى فتحته بقوانينه الخاضع لها

ترتبط الموسيقى بأجمل العلوم وبتسنى طرق أبوابها من جهات مختلفة وفضلها لايلبث أن يظهر من جميع الوجوه اذ تتعلق بالطبيعي والفسيولوجي فان كانا مزودين بطرق التحاليل والبحث العالية حددا نواميسها وكشفا لنا فيها عالما مفعما بالعجائب وترتبط بالفيلسوف الذى يستطيع أن يبين لنا انها تسعد النفوس بشريف العواطف وجليل الفكر . وتتعلق بالمؤرخ الذي يظهر لنا تقدمها وما صادفها من التقلبات وعلاقاتها بالتاريخ العام للاخلاق والعادات ودورها في حركات المدنية وترتبط بعلماء الجمال فتفتحهم مقراً رفيعاً غريباً يدرسون فيه آيات جمالها وأشكالها

الموسيقى الشاملة لجميع ماسردناه من المزايا تحدث في النفوس جرحاً من المذات وتترك فيه مثل رؤوس الابر فلا تنسى هذه الآلام اللذيذة الحلوة

أجد من العبث أن أسرد عيوب الموسيقى الشرقية وما وصلت اليه من الانحطاط كما انه لافائدة من وصف العلاج الناجع اذ قد بينا ان الموسيقى فن متداول من لوازم الهيئة الاجتماعية وانها ترجمان الاخلاق والعادات فهي مرتبطة بدرجة مدنية الامة وتسير معها خطوة بخطوة أما الى الامام واما الى الوراء . فان حاولنا أن نرقيها وحدها فمثلنا كمثل طبيب جاهل يريد أن يعالج مريضاً فسد دمه وانتشرت على جسده التآليل باقتصاره على الدهان فجهل العلة وأراد أن يداوي العرض وهيهات أن يبرأ عليله وتتحقق أمانيه . هذا والله أسأل ان ينهض بالشرق الى أعلى الدرجات حتى يبلغ من المجد والكمال غاية الغايات

الاصوات والكلام الالهامي الانفعال النفساني

الصوت الانساني الذى هو مصدر الكلام الشعرى والموسيقي يحرز ثلاث قوى للتعبير اذ لا يتسنى له ان يكون بالتتابع او فى الوقت نفسه : تمثيلا للشعور او تمثيلا للاشياء المادية والخارجية أو تمثيلا للفكرة

فني الحالة الاولى يتركب شكله من الصياح وجميع أنواعه وفي الثانية من التمثيل بالاصوات ودرجته فى الاتقان وفى الثالثة من الكلام الاصلي الذي تنقله الكتابة

تتميز هذه القوى الثلاث من مصدرها ودرجتها في المفهومية والالهام هو مصدرها المشترك ولكن الاولين يمكن ان يكونا من عمل الالهام المحض وأما الاخير فيعتمد معظمه على الاتفاق والاصطلاح . وحينما يكون الصوت الانساني نتيجة وقتية للانفعال أو صدى لاصوات الاشياء الخارجية يؤثر مباشرة فى الاحساس الطبيعي للسامع وتكون طرق تعبيره مفهومة لدى جميع الناس لمكانتها من الحقيقة الصريحة

ووقتما يكون الصوت الانساني علامة للفكرة فانه يخاطب العقل وله معني عظيم كامل ولطرق تعبيره مفهومية محصورة لان صفاتها اتفاقية عرفية فلننظر الان فى الحالتين الاوليين أي الكلام الطبيعي الالهامي المحض وقدرته على الترجمة عن الشعور

كيف تتأتى هذه الترجمة اذن ؟ — ان بين الحياة الروحية والحياة الجثمانية مهوي عميق لا تدركه البراهين الفلسفية ولكن الطريق سهل ممهدين هاتين الحياتين وبين الطبيعة . والتجارب العامة هي التي تيسر لنا معاينة هذه العجيبة المدهشة والعادية في آن واحد : اذ يجعل الصوت الانفعال محسوسا وللاذان مثل ما يصيره النظر مرئيا للعيون

يهتز الفؤاد من صدمة الآلام كما ترتجف أوتار الكنارة تحت انامل الموسيقار ويتبع تنوعات الشعور الدقيقة بسهولة لا يتأتى تحديدها

يمكننا أن نميز العناصر الآتية في الاصوات التي يتركب منها الصوت الانساني قوتها وعلوها ومدها ورنينها وحركة تتابعها . وسنبين درجة تعبير هذه الصفات المختلفة للكلام الطبيعي وانها مافتئت مستعملة فى الغناء وهو الحجر الاول للموسيقى الآلية

للاصوات المستعملة فى الموسيقى تشابه مع الصياح وتنوعات الكلام الطبيعي وقد قال (ليسينج) الكاتب الالماني الشهير : «ليست الاصوات الموسيقية علامة لشيء ما لانها لا تعبر مطلقاً بل تتابع الاصوات وحده هو الذي يعبر أو يوقظ الاهواء»

وهذه الفكرة تبين لنا أن الصوت يشبه النقطة الهندسية التي لاتفيد شيئاً وحدها ولكنها اذا انضمت اليها نقط أخرى انشأت خطاً

وقال (داروين) : «جميع أصوات الطبيعة من طنين الحشرة الى قصف الرعد وصوت الانسان ترتبط بنصر أو هزيمة في معترك الحياة» وتنطوى خلال هذه الجملة فكرة عظيمة فخمة لاحاجة لنا الآن لخوض عبابها بل يكفينا أن نقول ان الاصوات الموسيقية لها صفات تشبه مثيلاتها في الصوت الانساني فهي اذن عناصر التعبير

قوة الاصوات أي درجتها في الحدة أو الضخامة تكون مناسبة لقوة الشعور المعبر عنه . فان كان الانسان لم يحدث له انفعال فانه لا يفكر تقريباً في الكلام كما ان البلادة يصحبها عادة الصمت . وعدم تأثر أصحاب الوساوس والشكوك يجعلهم يتكلمون بصوت منخفض وكذلك الذين يراعون آداب المعاشرة . أما الانفعال فانه يوقد الفؤاد والصوت . والالم يوجب الصياح

علو الاصوات محدود بأسباب قوتها اذ يرتفع الصوت بدرجة الانفعال فترى الآلام اذا تتابعت مع ازدياد تتابع الصياح متنقلا في الزيادة من درجة الى أخرى أحد منها . وفي الموسيقى كلما ارتفع الصوت واشتد كان أكثر تعبيراً

للابعاد الموجودة بين الاصوات دور مهم في اللغات فانها هي التي تمنحها أشكالها وحياتها لانها تمثل درجة الانفعال . فترى السذج ذوي التأثر البطيء

لايستعملونها إلا قليلا وبالعكس يكثر استعمالها أصحاب الشعور الراقى السريعو التأثر

الابعاد اما أن تكون صاعدة أو هابطة فيختلف اتجاهها حسب المقام فان كان الشعور في نمو وتحقق علا الصوت وان خمد الشعور هبط الصوت . ويلاحظ عادة ان الجمل تنتهي بابعاد هابطة

الاصوات من وجهة طولها أو اتصالها اما أن تكون متقطعة أو متصلة وذلك مرتبط بكيان الشعور الذي ينتجها . فالضحك يعبر عنه فى الكلام الاعتيادي بحلقات من أصوات متقطعة . وبالعكس يعبر عن الانين بأصوات متصلة . فالتعبير بهذا الشكل موجود أيضاً فى الموسيقى

ولرنين الاصوات أهمية عظمى فى الكلام فيختلف بالنسبة الى المناخ والجنس والعمر والذكورة والانوثة وصفات العواطف وطبائعها ودرجتها وحالة الانسان النفسانية التي كان عليها وقتما انبعث منه الصوت

أظهر البحث في رنين الصوت عنصرين أحدهما نتيجة للتركيب الطبيعي ثابت لايتغير والثاني نشأ من الظروف ويتأتى تغييره لدرجة غير محدودة . فيشمل الرنين في الوقت نفسه الجزء الدائم الثابت والجزء المتحول من حياتنا الطبيعية والادبية. فهو للكلام بمثابة اللون للوجه

اذا سمعنا شخصاً يتكلم دون ان نراه فاننا نستطيع ان نحزر غالباً من لون كلامه ان كان ذكراً أو أنثى ونقدر عمره بالتقريب وعواطفه الحالية وشيئاً من أخلاقه

ان الملاحظات التي تبديها دراسة تنوع رنين الكلام وعلاقته برنين العواطف قد أسعدت الروائيين والممثلين بنفحات عظيمة وجعلت الروايات الصغيرة التى يمثلها شخصان أو ثلاثة سارة جذابة اذ تستطيع فيها فتاة لاتجاوب على كل ماتسأل عنه إلا بكلمة واحدة (ياسيدي) ولكنها متنوعة الرنين حسبما توحيه العواطف فتدل على الاحتشام والدهش والحسرة والخوف والسرور والحب وغير ذلك

وللكلام حركة تنشئها درجة الانفعال أو طبيعته أو أسباب خارجية . فنرى ان المحادثة مع شخص عديم المبالاة والاهتمام لا يشغل باله شيء تطول الى ان تصير غير محتملة . ومخاطبة الذين يختالون في برود شبابهم وهناءتهم تكون أكثر احتداداً ولهجة الذين تملكتهم العواطف الهائجة تكون محتدمة سريعة

نستنتج مما سبق أن جميع أشكال الكلام الالهامي توجد في الكلام الفني وهو أساس فن الموسيقى

سلمنا مبدئياً بالتعبير الموسيقي فما هو اذن مبلغه من الصحة ؟

الاصوات الموسيقية كمثيلاتها في الكلام الطبيعي صحيحة التعبير . وهما في التشابه كالالوان الصناعية التي يستعملها المصور وألوان الطبيعة وهذا المثال في غاية الموافقة لسهولته وهو الوحيد المعقول الصريح

ليست الالحان والاوزان بالطرق الوحيدة للتعبير بل توجد وسائل أخرى وهي قوة الاصوات ورنينها ولها أهمية عظمى اذ بواسطتهما يحصل التنويع دون تغيير شيء في الجمل الموسيقية التي تتركب منها القطعة . فالمغني يجب عليه استعمالها كما يلزم المنتقد ان يدقق فيها النظر

نشاهد في رواية (فيديليو) من مؤلفات (بيتهوفن) في فصلها الاول ان لحناً واحداً يغنيه بالتتابع (مارسولين) و (ليونور) و (روكو) و (جاكوينو) . فهل يتصور اذن أن (بيتهوفن) يطلب من أربعة الاشخاص تعبيراً واحداً ؟

اننا نعلم ان الكلام الطبيعي الذي هو أساس الكلام الموسيقي له معنى ولكنه أقل وضوحا من كلام الفكر (أي الكتابة)

يجوز أن يعبر الصياح نفسه عن الخوف والغضب والدهش واليأس والحقد ... وان يعبر الانين عينه عن بائس ظفر به الالم أو شهواني منغمس في ملذاته

يصادف أحياناً هذا الغموض في التصوير والحفر . ولنضرب مثلا المرأة التي لدغها الثعبان للمصور الفرنسي الشهير (كليزينجيه) فقد لاحظ فيها (تيوفيل

جوتييه) الشاعر الفرنسي المعروف ان تعبير الالم فيها أشبه بالملذات حينما تبلغ منتهاها من الشدة . وان شرذمة الجندالتي تمثل العسس لنابغة المصورين (رامبران) اختلفت فيها الآراء حتى ظنها بعضهم انها مارة بالنهار لا بالليل . ويوجد بمتحف التماثيل والحفر بمدينة (مونيخ) تمثال عظيم كبير القامة اختلفت فيه علماء الآثار فظنه البعض رجلا وظنه الاخرون امرأة . فهل لهذه الاسباب يستنتج ان التصوير والحفر لا يحرزان صحة التعبير ؟

ان كان نفس هذا الغموض غير محدود فى بعض أقسام الحياة الادبية نفسها فكيف نتطلب من الفن ان يكون أوضح من الطبيعة وأصدق من الحقيقة ؟ هل جميع عواطفنا تتميز من بعضها البعض ؟ أليس الحب ان بلغ منتهاه من الشغف صار أشبه بالبغض ؟

وباختبارنا للاعتراضين الآتيين المسيو (هنزليك) يتسنى لنا ان نبين قدرة التعبير بطريقة أدق وأوضح

١ — « ليست العواطف منعزلة بل تابعة لحالات فيزيولوجية وهي والعقل شيء واحد فلا يتأتى أن يعبر عنها بفن لا يستطيع فيه التمثيل ان يمثل جميع الحركات البسيكولوجية » يمكننا أن نجاوبه بالاستعانة بالتجارب قائلين له : « انني أشعر حق الشعور بفرحي وحزني وألمي.. دون أن يعترينى أقل شك في حالاتها الفيزيولوجية والدليل القاطع انني اذا اصغيت الى أجنبي يتحدث بلغة أجهلها فاني لا أفهم شيئاً من كلامه ولكنني أستطيع ان أعرف على الاقل ان كان المتكلم مسروراً أو غضبان مهددا أو حسن المقابلة جامداً أو متحمساً ... وقد تكون العواطف والفكر متضادة إذ يخالف أحياناً مدلول نغمة الكلام المعنى الحرفى للقول

٢ — « حينما يتسنى للعواطف ان تبين بطريقة واضحة فذلك راجع الى الاشياء التى تنطبق عليها وتسببها . فالامل مرتبط تمام الارتباط بصورة الشيء المحبوب الذي يرجى حصوله والذى هو مخالف للحالي : فلولا (مرجريت) و (ديسديمون) ماحدث الحب . فالموسيقى اذاً لا تستطيع ان تعرفنا (ديسديمون) ولا (مرجريت). فاذا

حذفت هذه الصورة المحسوسة التي هي سبب الحب لم تبق الا حركة غير محدودة وبالاكثر العاطفة العامة للهناءة والمرض. ثم تقول ان الموسيقى تعبر عن عواطف غير محدودة فهذا لا يفيد شيئاً أذن ماهي العواطف التي لا مضمون ولا محتوي لها ؟ هذا شيء لا معنى له ولا يمكن ان يكون موضوعا لعمل فني »

أرتنا التجارب ان معرفة الشعور لا تحتاج دائماً الى معرفة موضوعه . واذا سمعت صياحا شديداً فلا حاجة لي بمعرفة سببه لاعلم منه تعبير الالم لكي أشعر بالعطف على الصائح؟ اما تمتلىء قلوبنا بالرحمة والشفقة على (فيدر) وهي فى المسرح قبل ان تذكر (اونون) اسم (ايبوليت) ؟ هلا تقول ان (الفريد دوسوميه) يحتاج الى سرد اسماء حبيباته ليحدث فى نفوسنا تأثيره المعروف ؟ هل الحفار الذي عمل (نيوبيه) والمصور الذي صور (ميليون) فى حاجة لاخبارنا بحديثهما لنشعر بآلام الاولى وحزن الثانية ؟

ليست جميع العواطف واضحة أو متساوية فى درجة الوضوح . مثل ذلك انه توجد فوق رغبة الحصول على تمرة رائحة بمائة الف فرنك رغبة الغنى الغير محدودة وفوق حب المال المحدود الطمع والسعي وراء العظمة بشكل ما ويوجد ميل آخر يفوق جميع هذه الرغائب بل يشملها وهو حب السعادة . يمكننا اذن أن نميز نوعين من العواطف مرتبطين ببعض فروق خفيفة متوسطة بينها : احداهما مصحوبة بفكرة واضحة محدودة والثانية لا ترتبط بحكم ما من أحكام العقل وهي التي تمثل العواطف البحتة . فالاولى لا تستطيع الموسيقى ولا الكلام ان يعبرا عنها تعبيراً تاماً . وأما الاخرى فالموسيقى يتسنى لها ان تمثلها تمثيلا تاما بل تتخذ منها كالشعر موضوعاتها الشائقة المفضلة